١٢٢١: الصفدي عن إظهار الأيوبيين لقوتهم بحضور صليبي دمياط

ريشارد كنور بتعاون مع دانيال ج. كونيغ وتيريزا ياك

ريشارد كنور بتعاون مع دانيال ج. كونيغ وتيريزا ياك، ١٢٢١: الصفدي عن إظهار الأيوبيين لقوتهم بحضور صليبي دمياط، المنشور في: تأريخ العالاقات عبر البحر المتوسط، المجلد ٢، العدد ٢ (٢٠٢٠).

DOI: https://doi.org/10.18148/tmh/2020.2.2.34

الملخص: كتاب "الوافي بالوفيات" هو معجم للسير الذاتية كتبه الصفدي، صاحب الإنشاء تحت حكم المماليك. يحتوي الكتاب على سجلات لشخصيات ذات صلة بالتاريخ العربي الإسلامي. يتناول هذا المقال السجل الخاص بالسلطان الأيوبي الملك الكامل، والذي لعب دورا بارزا في انتصار الأيوبيين على الفرنجة خلال الحملة الصليبية الخامسة على دمياط. وهذا ملحوظ بشكل خاص نظرا لإشارة المؤلف إلى المديح الأدبي الذي أنشأه الشعراء وغيرهم من سكان المغرب. من خلال تأكيده على أن السلطان قد مدحه الشعراء وسكان المغرب مدحا كبيرا يتضح كيف أن المعاصرين والأجيال اللاحقة قد أجلُّوا الأيوبيين وخصوصاً المالك الكامل بصفتهم مدافعين عن العالم الإسلامي ضد الصليبيين.

المصدر

Al-Ṣafadī, *Kitāb al-Wāfī bi-l-wafayāt*, ed. Hans Ritter u. a., Istanbul: Steiner, 1931, vol. 1, cap. 119, pp. 193–197.

الصفدي، كتاب الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوت وتركي مصطفى، ٢٩ مجلد، بيروت: دار إحياء العربي، ٢٠٠٠، ج ١، ص ١٦٠–١٦١.

ولما استردّ الكامل دمياط من الفرنج وطلبوا منه الامان أرسل إليهم ابنه الصالح أيوب وابن أخيه شمس الملوك وجاءت ملوك الفرنج إلى الكامل فالتقاهم وأنعم عليهم وضرب لهم الخيام ووصل الأشرف موسى والمعظم عيسى فى تلك الحالة إلى المنصورة فى ثالث شهر رجب سنة ثماني عشرة وستمائة فجلس الكامل مجلساً عظيماً فى خيمة كبيرة عالية ومَدَّ سماطاً عظيماً وأحضر ملوك الفرنج والخيّالة ووقف أخواه الأشرف والمعظم فى خدمته وقام راجح الحِلّى الشاعر وأنشد قوله [الطويل]

هنيئاً فانّ السعد راح مخلّداً | وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا

حَبانا إله الخلق فتحاً بَدا لنا | مبيناً وانعاماً وعزّاً مؤبّدا

تَهَلَّلَ وجهُ الدهر بعد قطوبه | واصبح وجه الشرك بالظلم اسودا

ولما طغى البحر الخِضَمُّ باهله الطغاة واضحى بالمراكب مُزْبِدَا

اقام لهذا الدين من سلَّ عزمَهُ | صقيلاً كما سلَّ الحسامَ المهَنَّدا

فلم يَنْجُ الّا كلّ شِلْوٍ مُجدَّلٍ | ثوى منهمُ أو مَنْ تراه مقيّدا

ونادى لسان الكون فى الارض رافعاً | عقيرتَهُ فى الخافقين ومُنشِدا

أعُبّادَ عيسىٰ إنّ عيسى وحِزْبَه | وموسى جميعاً يَنْصُرَانِ محمّدا

واشار عند قوله عيسى الى عيسى المعظم وعند قوله موسى الى الاشرف موسى وعند قوله محمد الى الكامل محمد ، قال الامير سيف الدين بن اللمطي: كتب بعض المغاربة الى الملك الكامل رقعة فى ورقة بيضاء إن قرئت فى ضوء السراج كانت فضيّةً وان قرئت فى الشمس كانت ذهبية وان قرئت فى الظلّ كانت حبراً اسود فيها هذه الابيات [المتقارب]:

لئن صدّني البحر عن مَوطني | وعيني باشواقها ساهِرَهْ

فقد زخرفَ الله لى مكةً | بانوار كعبته الزاهِرَهْ

وزخرف لى بالنبي يثرباً | وبالملك الكامل القاهِرَهْ

قال الأمير سيف الدين بن اللمطي فقال الملك الكامل قُل [المتقارب]:

وطيّبَ لى بالنبي طَيبةً | وبالملك الكامل القاهره

التأليف والعمل

[١] ولد الصفدي أو بمعنى أصح صلاح الدين خليل بن أيبك أبو الصفاء الألبكي (٦٩٦-٧٦٤ هجرية/٧٩٢١-١٣٦٣ ميلادية) في منطقة صفد بفلسطين وترعرع هناك. بعد دراسة الفقه الإسلامي انتقل إلى دمشق بعمر ٢٠ عاما تقريبا حيث اتصل سريعا بكبار العلماء والكتاب المعاصرين له في الشام ومصر، على سبيل المثال بكاتب السر والمؤرخ العامل في خدمة المماليك ابن فضل الله العمري (توفي ٧٤٩ هجرية/١٣٤٩ ميلادية).[1] وبصفته خطاطا وأديبا كان للصفدي إمكانيات صعود في الجهاز الإداري للمماليك وتقلد مناصب الكاتب في القاهرة وحلب والرحبة (بشرق بلاد الشام) وصفد ودمشق حيث قضى معظم حياته في دمشق والقاهرة. وإلى جانب عمله في الجهاز الإداري للمماليك فقد كتب مؤلفاته المتعددة الجوانب التي شملت ما يقرب من خمسين مجلدا مستقلا في موضوعات مختلفة (مثل الحج، وعلم اللغة، والنقد الأدبي والسير الذاتية، والألغاز) وضمت ما يقرب من خمسمئة مخطوط. وقد توفي في عام ١٣٦٣/٧٦٤ أثناء انتشار مرض الطاعون في دمشق.[2]

[٢] الكتاب المذكور "الوافي بالوفيات" عبارة عن معجم ببليوغرافي للسير الذاتية (الطبقات)، وهو مصنف باعتباره من الأعمال الببليوغرافية للسير الذاتية لأنه بالإضافة إلى البيانات الحياتية للأشخاص المذكورين بالكتاب يشمل كذلك ذكر بعض مؤلفاتهم. وتعود أول مجموعة عربية إسلامية من هذا النوع إلى منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وكان هدفها في ذلك الوقت هو تحديد موطن الرواة الذين نقلوا أقوال وأفعال النبي محمد (المفرد: حديث، الجمع: أحاديث)، لكي يمكن إيصال تصورات تتعلق بصدق رواياتهم. وقد تطور هذا النوع من المؤلفات خلال القرون اللاحقة، لكن ابن خلكان (توفي ٦٨١ هجرية/٢٨٢١ ميلادية) هو أول من تخلى في مؤلفه كتاب وَفَيَات الأعيان في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي عن الاقتصار على تخصص واحد، بل وأيضا عن التركيز على منطقة معينة، بيد أن أكثر ممثلو هذا النوع قد تخصصوا في البحث حول مجموعات مهنية مختلفة.[3]

[1] Ess, Ṣafadī-Splitter, p. 2197.
[2] Rosenthal, al-Ṣafadī.
[3] Jaques, Arabic Islamic Prosopography; Auchterlonie, *Arabic Biographical Dictionaries*, pp. 2–3. Auchterlonie, pp. 20–21.

[٣] تُعدّ مجموعة الصفدي عن تراجم ما يزيد عن ١٣٠٠٠ شخص، بداية ممن عاشوا في زمن محمد وصولا إلا منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، كتابا ذا أهمية كبيرة لأن الصفدي لم يكن جامعا فقط، بل كان مؤلفا لتراجم أصلية.[4] لقد استفادت مجموعة الصفدي من بين ما استفادت من حقيقة أنه كان يسجل لنفسه دائما عند تنقله من مكان لمكان بموجب مهام وظيفته متى وأين قابل الأشخاص ومع من منهم تواصل عن طريق المراسلة الخطية[5]. ويبدو أن مجموعة تراجمه كانت موجودة مسبقا في نسخ مسودّة في أربعينيات القرن الثامن الهجري/أربعينيات القرن الرابع عشر الميلادي، ولم تكتمل إلا بحلول عام ٢٧٦ هجرية/١٣٦١ ميلادية.[6] في مقدمة كتابه يبرز الصفدي تطلعه إلى الإلمام الهائل الشامل لموضوعاته. وهو يصيغ هدفه من ذلك كما يلي:

"فلا أغادر أحدا من الخلفاء الراشدين وأعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والعمال والوزراء والقراء والمحدثين والفقهاء والمشايخ والصلحاء وأرباب العرفان والأولياء والنحاة والأدباء والكتاب والشعراء والأطباء والحكماء والألباء والعقلاء وأصحاب النحل والبدع والآراء وأعيان كل فن اشتهر ممن اتقنه من الفضلاء من كل نجيب مجيد ولبيب مفيد الطويل (...)."[7]

[٤] إلى جانب كتاب "الوافي بالوفيات" المقتبس هنا كتب الصفدي أعمالا أخرى عن أشخاص مشهورين مصابين بالعمى، كما كتب عن الأساليب البلاغية وعن مراسلاته الشعرية مع معاصريه.[8] بالإضافة إلى ذلك ألف الصفدي بعد عدة سنوات كتابا ببليوغرافيا آخر عن التراجم بعنوان: "أعيان العصر وأعوان النصر" أشار فيه إلا كتابه السابق "الوافي بالوفيات". وقد تناول في كتابه الأخير هذا كثيرا من معاصريه دون غيرهم، منهم على سبيل المثال بطرس الأول القشتالي (Petrus rex Castellae، حكم ١٣٥٠–١٣٦٩م)،[9] والكتاب يشهد من بين ما ورد فيه بأنه كان على دراية بأجزاء من الغرب اللاتيني، خاصة شبه الجزيرة الإيبيرية والدول الصليبية.[10]

[٥] ظل كتاب الصفدي بلا مثيل من بين كتب التراجم العربية فيما يخص مضمونه وتطلعه، حتى وإن كان الصفدي قد اقتصر في مصادره على استخدام كتب الطبقات السابقة، كما استوعب كذلك مصنفات في كتابة التاريخ.[11] وقد اعتمد كثير من المؤلفين من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر على كتاب الوافي للصفدي، مثل ابن تغربردي (توفي ٨٧٤–٨٧٥ هجرية/١٤٧٠ ميلادية) الذي استشهد بالكتاب المذكور مرارا.[12]

المحتويات والإطار التاريخي للمصدر

[٦] المدخل المعجمي المذكور فيما سبق هو مستخلص من المدخل الخاص بترجمة السلطان الأيوبي لمصر، الملك الكامل (حكم ٦١٥–٦٣٥ هجرية/١٢١٨–١٢٣٨ ميلادية). ويشير المدخل إلى أحداث الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧–١٢٢١م) باستخدام أساليب مديح وتعظيم.[13]

---

[4] Abu-ʿUksa, Lives, p. 84.

[5] Ess, Ṣafadī-Splitter, pp. 2175–2180.

[6] Little, Al-Ṣafadī, p. 209; Abu-ʿUksa, Lives, p. 84.

[7] الصفدي، كتاب الوافي بالوفيات، تحقيق الأرناؤوت ومصطفى، ج ١، ص ٢٧. Ess, Ṣafadī-Splitter, p. 2245.

[8] Ess, Ṣafadī-Splitter, pp. 2185–2186.

[9] الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقسق أبو زيد، ج ٢، ص ٣٦١–٣٦٣.

[10] Ess, Ṣafadī-Splitter, pp. 2180–2181; Abu-ʿUksa, Lives, pp. 86–96.

[11] أستعمل الصفدي العمل "تأريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام" للذهبي (توفي ٧٤٨هـ\١٣٤٨م) لوصف سير الإفرنج في كتابه. أخذ بعد المعلومات من سبط بن الجوزي (توفي ٦٥٤هـ\١٢٥٦م) واليونيني (توفي ٧٢٦هـ\١٣٢٦م). أنظر:

Ess, Ṣafadī-Splitter, p. 2246; Abu-ʿUksa, Lives, pp. 86–87.

[12] Ess, Ṣafadī-Splitter, pp. 2239–2245.

[13] Van Cleve, Fifth Crusade.

[٧] بخلاف الحملات الصليبية بالقرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي كانت القدس تشكل الهدف بطريقة غير مباشرة في هذه الحملة الصليبية. على الأقل عندما أنهى السلطان صلاح الدين الأيوبي (حكم ٥٦٧–٥٨٩ هجرية/١١٧١–١١٩٣ ميلادية) حكم الصليبيين على القدس في معركة حطين عام ٥٨٣ هجرية/١١٨٧ ميلادية، تبين لهؤلاء أن مصر القوية اقتصاديا وعسكريا تعيق بشدة استعادة مملكة بيت المقدس وبالتالي الحفاظ عليها. ولأن المدن الساحلية المصرية ودلتا النيل كذلك كانت سهلة الغزو من البحر أصبحت مدينة دمياط في شرق دلتا النيل هدفا للحملة الصليبية الخامسة.[14] كان مخططا أن تشكل دمياط نقطة انطلاق استراتيجية مهمة في أيدي الصليبيين لمهاجمة مناطق مصرية أخرى لاستخدام مصر بعد ذلك قاعدة إما لتنفيذ عمليات غزو أخرى أو من أجل مفاوضات يكون هدفها تبادل مصر بمناطق من الأراضي المقدسة. وقد تمكن الصليبيون في عام ١٢١٩م من بفتح دمياط والسيطرة عليها. ولم يستطع الملك الكامل إيقاف الصليبيين من التمدد باتجاه القاهرة إلا بعد عامين في موقعة المنصورة، واستطاع هزيمتهم هزيمة نكراء بمساعدة إخوته، حيث استعاد دمياط من الصليبيين في إطار مفاوضات ودون إراقة أي دماء أخرى.

[٨] في الفقرة المقتبسة فيما سبق يخبرنا الصفدي أولا عن انتصار السلطان على الإفرنج الذين من ثمّ طلبوا منه الأمان. وبعد أن أرسل إليهم السلطان الكامل أولا ابنه وابن أخيه استقبل بعدها الحكام الإفرنج في مخيمه ودعا لاجتماع كبير، حضره إخوته والحكام الإفرنج إلى جانب فرسان السلطان.

[٩] في هذه المناسبة ألقى الشاعر الأيوبي راجح الهلّي (توفي ٦٢٧ هجرية/ ١٢٣٠ ميلادية) أبياتا شعرية. وهذه الأبيات تشهد بالسعادة بانتصار السلطان والشكر لعون الله على هذا النصر. وقد قارن الشاعر الإسلامَ الذي ازدهر مجددا بالمسيحية الموصوفة بأنها شرك الأعداء المهزومين وبأن مآلها إلى الزوال. وأنه قد تبين من تصاريف القدر أن عيسى وموسى قد أعانوا محمدا على النصر. وعند هذه الأبيات يشير الشاعر إلى الإخوة الأيوبيين الثلاثة الذين يحملون الأسماء عيسى وموسى ومحمد.

[١٠] كذلك تلقى السلطان صحيفة خاصة من المغرب بها قصيدة مديح على انتصاره. تصف الأبيات الشعرية القادمة من المغرب حنين أحد المسافرين سفرا بعيدا منحه الله ملجأ في مكة والمدنية – وبفضل النصر على الإفرنج – منحه ملجأ آخر في القاهرة. ويرد السلطان على هذه القصيدة أن الله قد أنعم عليه من فضله بالنبي وأنعم على مدينة القاهرة به هو شخصيا. بهذه الكلمات انتهى مدخل الصفدي المعجمي عن الكامل.

[١١] وردت نهاية الحملة الصليبية على دمياط في المصادر اللاتينية المسيحية المعاصرة من وجهة نظر المنهزم ولهذا فسرت بالطبع أيضا بطريقة مختلفة تماما عما ورد عند الصفدي.[15] صحيح أن النصوص العربية الإسلامية المعاصرة تشارك الصفدي في نغمة الانتصار المميّزة لتقريره إلا أنها تختلف في عرض التفاصيل التاريخية للحدث. يذكر كاتبا التاريخ ابن الأثير (توفي ٦٣٠ هجرية/١٢٣٣ ميلادية) وابن واصل (توفي ٦٩٧ هجرية/١٢٩٨ ميلادية) على سبيل المثال مفاوضات تمت طبقا لما أورده ابن الأثير أثناء القتال لوضع قاعدة للصلح.[16] بوصفه مؤلفا لمعجم ببليوغرافي للسير الذاتية يضع ابن خلكان الحملة الصليبية على دمياط ضمن سيرة السلطان بصورة أقوى، حيث يرصد لحياة السلطان تفاصيل أكثر ولنهاية الحملة الصليبية تفاصيل أقل مما يذكره الصفدي.[17] ويبدو

[14] Murray, Place, p. 118, 120–125; Saunders, Significance, p. 29.

[15] Thomas Oliverus (d. 1227), *Schriften*. ed. Hoogeweg, pp. 275–276; Rogerus de Windesora (d. 1236), *Liber qui dicitur Flores historiarum*, ed. Hewlett (Rerum Britannicarum medii aevi scriptores 84,1–3), vol. 2, p. 265; Bird, *Crusade*, pp. 219–220, 231.

[16] ابن الأثير، الكامل في التأريخ، تحقيق القاضي، ج ١٠، ص ٣٧٩، ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق الشيال، ج ٤، ص ٩٧.

Ibn al-Aṯīr, *Chronicle*, trans. Richards, vol. 3, p. 180.

[17] ابن خلكان، كتاب وفيات الأعيان، تحقيق عباس، ج ٥، ص ٧٩–٨٩ (سيرة الكامل)، ص ٨٠ (أحداث دمياط).

Ibn Khallikan, *Biographical Dictionary*, trans. McGuckin de Slane, vol. 3, pp. 240–248.

أن الصفدي لم يعتمد على النصوص المذكورة ولا عرفها. ولأن مدخله يبدي تفاصيل موازية للتقرير التاريخي لسبط بن الجوزي (توفي ٦٥٤ هجرية/ ١٢٥٦ ميلادية)، فإن الظاهر أن هذا التقرير يعتبر مصدرا له ويتضح ذلك مما يلي: عرض الأحداث مكتوب هنا بصيغة مشابهة والنص يشمل على القصيدة الأولى لراجح الهلي دون تغيير.[18] ونفس الأمر يتكرر مع تقرير أبي شامة (توفي ٦٥٥ هجرية/١٢٦٨ ميلادية) الذي يذكر إلى جانب القصيدة الأولى لراجح الهلي الموروده عنده بتباين يسير كما يذكر الصفدي أن السلطان قد سلم ابنه وابن أخيه رهائن لدى الإفرنج.[19] وليس من الواضح على العكس من ذلك من أين أخذ الصفدي القصيدة المغربية الثانية.

[١٢] توجد السيرة الذاتية المختصرة للملك الكامل في المجلد الأول من كتاب الصفدي. بالمقارنة بالتراجم الأخرى التي لا تشتمل سوى على بعض السطور القليلة فإنها تعتبر بصفحاتها الثلاث طويلة نوعا ما. وهذا الطول لا يعود فقط إلى شغف الصفدي بالشعر،[20] بل كذلك إلى منزلة الملك الكامل بكونه سلطانا، وكذلك إلى دوره في رد الإفرنج عن دمياط وما حولها. إن إمكانية تبجيل علماء العصر المملوكي اللاحق لحكام الدولة الأيوبية يتضح كذلك من المدخل ذات العشرين صفحة المخصص لسيرة صلاح الدين الذي يتخطى طوله ترجمة الملك الكامل بوضوح.[21] وبالرغم من أن الإفرنج كان لهم دور بصفتهم أعداء للأيوبيين وللمماليك على السواء فإنه يندر ذكرهم في السياق التالي لهذا الكتاب، حيث لم يرد ذكرهم سوى ١١٥ مرة في السير الذاتية التي تزيد عن ١٣٠٠٠ سيرة ذاتية.[22] وبالرغم من أن الإفرنج لا يصنفون من أي صنف من المجموعات المذكورة في مقدمة كتاب الصفدي فإنه خصص لهم تسع سير ذاتية منها سير لخمس من الصليبيين البارزين.[23]

ربط السياق والتحليل والتفسير

[١٣] من حيث المضمون لا يضيف الصفدي سوى القليل عن حياة الملك الكامل وقضائه على الحملة الصليبية على دمياط، لكن عرضه يعتبر عرضا مشوقا خاصة وأنه يزيد من أهمية الأحداث باستخدام الشعر بصورة رمزية ويضعها في إطار تفسيري أوسع، وهو أمر مختلف بوضوح عن الرواية الموازية السابقة زمنيا التي يعرضها كاتبا التاريخ سبط بن الجوزي وأبو شامة. فسبط ابن الجوزي لا يذكر في عرضه للقصيدة الأولى أن الشاعر راجح الهلي أشار إلى الإخوة الأيوبيين الثلاثة عند ذكره لعيسى وموسى ومحمد. بالإضافة إلى ذلك ليس هناك وجود لدى كلا الكاتبين للأبيات الشعرية المغربية التي أوردها الصفدي.[24]

[١٤] القصيدة الأولى التي أنشأها وألقاها راجح الهلي كتبت بالبحر الطويل. وهي تمدح الإخوة الأيوبيين الأشرف موسى (حكم ٦٢٤–٦٣٥ هجرية/١٢٢٧–١٢٣٧ ميلادية)، وعيسى المعظم (حكم ٦١٨–٦٢٤ هجرية/ ١٢٢١–١٢٢٧ ميلادية) والكامل محمد من خلال التورية بأسمائهم الشخصية عيسى وموسى ومحمد. وهم يوصفون في نص القصيدة وبالإشارة أثناء إلقائها كونهم

---

[18] سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، تحقيق ريحاوي، ج ٢٢، ص ٢٥٨–٢٥٩.

[19] أبو شامة، الذيل على الروضتين، تحقيق شمس الدين، ص ١٩٦.

[20] Ess, Ṣafadī-Splitter, p. 2247.

[21] الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقسق أبو زيد، ج ٢٩، ص ٤٨–٦٨.

[22] Abu-ʿUksa, Lives, pp. 85–86.

[23] الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق أبو زيد، ج ٦، ص ١١٧ (Rainaud de Châtillon, r. 1177–1187)، ج ١٠، ص ١١٢ (Baudouin I de Jérusalem, r. 1100–1118)، ص ١٩٧ (Louis IX de France, r. 1226–1270)، ص ٢٢٨ (Bohemond VI d'Antioche, r. 1252–1268)، ج ١٣، ص ١٨٧ (George d'Antioche, d. 1151–1152)، وهو موصوف كأنه إفنجي رغم أصله في إفريقيا)، ج ١٤، ص ٣٤ (Pedro, infante de Castilla, d. 1319)، ص ٧٢ (Roger II, r. 1130–1154)، ج ٢٤، ص ٣٠٢ (Rodrigo, rey de los Godos, r. 710–711)، ج ٢٥، ص ٣٠١ (Conrad de Montferrat, r. 1192).

[24] سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، تحقيق ريحاوي، ج ٢٢، ٢٥٨–٢٥٩، أبو شامة، الذيل على الروضتين، تحقيق شمس الدين، ص ١٩٦.

حاملي أسماء مؤسسي الديانات التوحيدية الثلاث بصفتهم ممثلي اليهودية والمسيحية والإسلام الذين حاربوا معا ضد الإفرنج الموصوفين بأنهم أهل شرك وحكام طغاة.[25] من خلال هذا التشبيه يوضح الشاعر أن مؤسسي المسيحية واليهودية ليسوا في صف الصليبيين، بل في صف المسلمين. وبذلك فإنه يسحب من حرب الصليبيين أي شرعية دينية.

[١٥] كتبت القصيدة الثانية ورد السلطان الكامل عليها في بحر المتقارب. ومما هو جدير بالملاحظة أولا مادة الوثيقة التي كتبت عليها هذه القصيدة حسب ما ذكر — وهي قطعة من الورق تظهر الحبر المستخدم عليها بثلاثة ألوان مختلفة طبقا لمصدر الضوء. ولا يمكن التحقق في النهاية مما إذا كانت الإشارة هنا إلى مادة ثمينة بصفة خاصة للكتابة أو أنه فقط يتعلق الأمر بإضافة هالة معينة للسياق العام. من الممكن ربط موضوع الألوان الثلاثة بالإخوة الثلاثة المنتصرين والممثلين لأشكال التوحيد الثلاثة. بيد أنه على العكس من ذلك يبدو أن نص القصيدة الثانية لا يشير سوى إلى الملك الكامل وحده. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أيضا أن مدح السلطان الأيوبي لم يصدر عن شاعر من شعراء البلاط الأيوبي، بل من مواطني المغرب — أي من مسلمين لم يكونوا تحت حكم الأيوبيين. تبين الرسالة الواردة من المغرب أن انتصار الملك الكامل وجد ترحيبا وتقديرا في المناطق الغرب المسلم، بالذات في شمال إفريقيا. ويمكن تفسير الأبيات الشعرية القادمة من المغرب باعتبارها تكملة للغة موضوع القصيدة الأولى كما يلي: هناك على صوت الله في أرجاء العالم، وهنا تلقى إجابة من بلاد المغرب.

[١٦] ينقل لنا الصفدي بجمعه لإطار نثري تاريخي واستشهادين شعريين مؤلفا أدبيا مليئا بالرمزية. وهذا المؤلف يصف الإطار التاريخي باقتضاب ليوجه النظر سريعا إلى مشهد يعرض انتصار الأيوبيين في حضور أهم ثلاثة ممثلي الدولة الأيوبية وفي حضور جيشهم وكذلك حضور الإفرنج المهزومين، ولم ترد هزيمة الإفرنج فقط باعتبارها نصرا للإسلام على الصليبيين الممثلين للمسيحية، بل أيضا لأن موسى وعيسى في صف المسلمين في الحرب، وبذلك فإن الصليبيين يُنازعون في ادعائهم أنهم يمثلون المسيحية أو أي شكل من أشكال التوحيد أصلا. ولهجائهم بصفتهم أهل الشرك فإنهم لا يحاربون المسلمين فقط، بل يحاربون كذلك مؤسس دينهم الذي ينتمون إليه، كما يحاربون الأنبياء الذين أتوا قبله.

[١٧] يأخذ موضوع الاتحاد مكانة هامة في هذا العرض، حيث تشترك الأديان الثلاثة والإخوة الأيوبيون الثلاثة الذين هزموا المعتدين الإفرنج معا. من المحتمل أن الشاعر راجح الهلي الذي كان حاضرا في الأحداث الخاصة بدمياط هدف إلى أن يعرض أمام الإخوة الأيوبيين أهمية اتحاد أفراد الدولة الحاكمة والنتائج الإيجابية المترتبة على ذلك وأن يشكرهم أيضا على إنجازهم. يتعلق الأمر عند الصفدي الذي كتب عن الأحداث بعد فترة كبيرة بطريقة أدبية بالاعتراف بقدرهم التاريخي، حيث إن كون الأيوبيين أثبتوا أنهم حماة جديرون بالذكر للعالم الإسلامي ضد هجمات الصليبيين لم يجد تقديرا في الأجزاء الأخرى من المحيط الإسلامي فقط، بل كذلك لدى من أتى من بعدهم.

[١٨] لم تكن الحملة الصليبية الخامسة هي آخر محاولات الصليبيين لغزو مصر. صحيح أنه كانت توجد علاقات تجارية في نفس الوقت بين مضر وبين الجمهوريات البحرية الإيطالية،[26] بينما كانت الحملة الصليبية عام (١٢٢٨–١٢٢٩م) بقيادة القيصر فريدريك الثاني (حكم ١٢٢٠–١٢٥٠م) تشير إلى اتجاهات لإيجاد حل دبلوماسي للصراع حول الأراضي المقدسة.[27] وقد حدث بالرغم من ذلك هجوم آخر على دمياط بعد ثلاثة عقود في الحملة الصليبية (١٢٤٨–١٢٥٤م) بقيادة لويس التاسع، ملك فرنسا (حكم ١٢٢٦–١٢٧٠م).[28] كما نهب بطرس الأول ملك قبرص (حكم ١٣٥٩–١٣٦٩م) عام ١٣٦٥م في الحملة الصليبية على

[25] Gimaret, Shirk; Christie, Ibn al-Qalānisī, pp. 16–17.
[26] Favreau-Lilie, Seestädte; Jacoby, Les Italiens.
[27] Stürner, Kreuzzug Kaiser Friedrichs II.
[28] Strayer, Crusades of Louis IX; König, 1270: Ibn Ḫaldūn.

الإسكندرية تلك المدينة الواقعة على البحر المتوسط.[29] لم تحصل بعدها أي محاولات توسع صليبية ناجحة، فبعد انتصارهم في معركة عين جالوت عام (٦٥٨ هجرية/١٢٦٠ ميلادية) على المغول في فلسطين استولى حكام المماليك الجدد على الدول الصليبية في بلاد الشام تدريجيا حتى سقط آخر معقل لهم في عكا عام ١٢٩١م.[30] لقد وقعت الحملة الصليبية المذكورة هنا على دمياط إذن في وقت كانت تمثل الحملات الصليبية فيه تهديدا فعليا لمصر. وقد كان ذلك سببا للمعاصرين من المسلمين آنذاك لتصوير نصر الأيوبيين على الصليبيين والاحتفاء به، وسببا للصفدي الكاتب من عصر لاحق للتأكد على أهميته التاريخية بوسائل أدبية.

(الترجمة: رضا حامد قطب سعد)

اصدارات المصدر وترجماته

Al-Ṣafadī, *Kitāb al-Wāfī bi-l-wafayāt*, ed. Hans Ritter et al. (Bibliotheca Islamica 6), 30 Bde., Istanbul: Steiner, 1931–2007, URN: urn:nbn:de:gbv:3:5-30156.

اصدارات المصدر وترجماته

الصفدي، كتاب الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوت وتركي مصطفى، ٢٩ مجلد، بيروت: دار إحياء العربي، ٢٠٠٠، https://shamela.ws/book/6677.

المصادر المقتبسة غير العربية

Ibn al-Aṯīr, *The Chronicle of Ibn al-Athīr for the Crusading Period from "al-Kāmil fī'l-ta'rīkh"*, trans. Donald S. Richards, 3 Bde., Aldershot: Ashgate, 2006–2008.

Ibn Khallikan, *Biographical Dictionary*, trans. William McGuckin de Slane, 4 Bde., Paris: Oriental Translation Fund, 1843–1871.

Rogerus de Windesora, *Liber qui dicitur Flores historiarum ab anno domini MCLIV annoque Henrici Anglorum regis secundi primo*, ed. Henry Gay Hewlett (Rerum Britannicarum medii aevi scriptores 84,1–3), London: Longman, 1886.

Thomas Oliverus, *Die Schriften des Kölner Domscholasters, späteren Bischofs von Paderborn und Kardinalbischofs von S. Sabina Oliverus*. ed. Hermann Hoogeweg, Tübingen: Litterarischer Verein in Stuttgart, 1894.

المصادر المقتبسة العربية

ابن الأثير، الكامل في التأريخ، تحقيق عبد الله القاضي، ١١ مجلد، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.

ابن خلكان، كتاب وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، ٨ مجلدات، بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٨-١٩٧٢.

ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ٤ مجلدات، القاهرة: دار القلم، ١٩٥٣-١٩٧٧.

[29] Christ, Non ad caudam.
[30] Runciman, Crusader States; Jotischky, *Crusading*, pp. 229–254.

أبو شامة، الذيل على الروضتين، تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢.

سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، تحقيق محمد بركات كامل محمد الخراط وعمار ريحاوي ومحمد رضوان عرقسوسي وأنوار طالب وفادي المغربي ورضوان مامو ومحمد معتز كريم الدين وزاهر إسحاق ومحمد أنس الخن وإبراهيم الزيبق، ٢٣ مجلد، دمشق: الرسالة العلامية، ٢٠١٣.

الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقسق علي أبو زيد إلخ، ٦ مجلدات، دمشق: دار الفكر بدمشق، ١٩٩٨.

المراجع المقتبسة والتفصيلية غير العربية

Abu-ʿUksa, Wael: Lives of Frankish Princes from al-Ṣafadī's Biographical Dictionary al-wāfī bi-l-wafayāt, in: *Mediterranean Historical Review* 32 (2017), pp. 83–104.

Auchterlonie, Paul: *Arabic Biographical Dictionaries. A Summary Guide and Bibliography*, Durham: Middle East Libraries Committee, 1987.

Bird, Jessalynn Lea: *Crusade and Christendom. Annotated Documents in Translation from Innocent III to the Fall of Acre, 1187–1291*, Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2013.

Cassidy-Welch, Megan: „O Damietta". War, Memory and Crusade in Thirteenth-Century Egypt, in: *Journal of Medieval History* 40 (2014), pp. 346–360.

Chamberlain, Michael: The Crusader Era and the Ayyubid Dynasty, in: Martin Daly (ed.), *The Cambridge History of Egypt*, vol. 1: *Islamic Egypt, 640–1517*, Cambridge: Cambridge University Press, 1998, pp. 211–241.

Christ, Georg: Non ad caudam sed ad caput invadere: the Sack of Alexandria Between Pride, Crusade and Trade Diplomacy (1365–1370), in: Gherardo Ortalli und Alessio Sopracasa (eds), *Rapporti mediterranei, pratiche documentarie, presenze veneziane: le reti economiche e culturali (XIV-XVI secolo)*, Venedig: Istituto Veneto di Scienze, Lettere ed Arti, 2017, pp. 153–182.

Christie, Niall: *Muslims and Crusaders. Christianity's Wars in the Middle East, 1095–1382, from the Islamic Sources*, London: Routledge, 2014.

Christie, Niall: Ibn al-Qalānisī, in: Alexander Mallett (ed.), *Medieval Muslim Historians and the Franks in the Levant. The Muslim World in the Age of the Crusades*, Leiden: Brill, 2015, pp. 7–29.

Cobb, Paul M.: *The Race for Paradise: An Islamic History of the Crusades*, Oxford: Oxford University Press, 2014.

Coureas, Nicholas: The Events of the Fifth Crusade According to the Cypriot Chronicle of „Amadi", in: Jan Vandeburie (ed.), *The Fifth Crusade in Context. The Crusading Movement in the Early Thirteenth Century*, London: Routledge, 2017, pp. 185–191.

Edbury, Peter W.: Ernoul, Eracles and the Fifth Crusade, in: Jan Vandeburie (ed.), *The Fifth Crusade in Context. The Crusading Movement in the Early Thirteenth Century*, London: Routledge, 2017, pp. 163–174.

Ess, Josef van: Ṣafadī-Splitter, in: Hinrich Biesterfeldt (ed.), *Kleine Schriften: Collected Short Writings of Josef van Ess*, vol. 3, Leiden: Brill, 2018, pp. 2175–2250.

Favreau-Lilie, Marie-Luise: Die italienischen Seestädte und die islamische Levante (Syrien, Ägypten) im Zeitalter der Kreuzzüge (11.–13. Jh.), in: Stefan Leder (ed.), *Crossroads between Latin Europe and the Near East*, Würzburg: Ergon-Verlag, 2011, pp. 147–178.

Gimaret, Daniel: Shirk, in: *Encyclopaedia of Islam, Second Edition* 9 (1997), pp. 484–486.

Haddad, Wadi' Z.: The Crusaders through Muslim Eyes, in: *The Muslim World* 73 (1983), pp. 234–252.

Homerin, Th. Emil: Reflections on Poetry in the Mamluk Age, in: *Mamluk Studies Review* 1 (1997), pp. 63–85.

Housley, Norman J.: The Thirteenth-Century Crusades in the Mediterranean, in: David Abulafia (ed.), *The New Cambridge Medieval History 5*, Cambridge: Cambridge University Press, 1999, pp. 569–589.

Housley, Norman J.: Crusading and Latin-Muslim Contacts in the Eastern Mediterranean. The Religious, Diplomatic and Juridical Frameworks and their Implications for the Study of the Slave Trade, in: Reuven Amitai (ed.), *Slavery and the Slave Trade in the Eastern Mediterranean (c. 1000–1500 CE)*, Turnhout: Brepols, 2018, pp. 31–50.

Humphreys, S. Stephen: Ayyubids, Mamluks, and the Latin East in the Thirteenth Century, in: *Mamluk Studies Review* 2 (1998), pp. 1–18.

Jacoby, David: Les Italiens en Egypte aux XII^{e} et XIII^{e} siècle: du comptoir à la colonie?, in: Alain Ducellier (ed.), *Coloniser au Moyen Âge. Méthodes d'expansion et techniques de domination en Méditerranée du XI^{e} au XVI^{e} siècle*, Paris: Armand Colin, 1995, pp. 76–88.

Jaques, R. Kevin: Arabic Islamic Prosopography: the Ṭabaqāt Genre, in: K. S. B. Keats-Rohan (ed.), *Prosopography. Approaches and Applications*, Oxford: Prosopographica & Genealogica, 2007, pp. 387–413.

Jotischky, Andrew: *Crusading and the Crusader States*, London: Routledge, 2. Aufl. 2017.

Kedar, Benjamin Z.: Religion in Catholic-Muslim Correspondence and Treaties, in: Alexander Beihammer, Christopher Schabel et al. (eds), *Diplomatics in the Eastern Mediterranean, 1000–1500*, Leiden: Brill 2008, pp. 407–422.

Köhler, Michael A.: *Alliances and Treaties between Frankish and Muslim Rulers in the Middle East. Cross-Cultural Diplomacy in the Period of the Crusades*, Leiden: Brill, 2013.

König, Daniel G.: 1270: Ibn Ḫaldūn on the Events that Led to Louis IX's Crusade to Tunis, in: *Transmediterranean History* 2.1 (2020), DOI: doi.org/10.18148/tmh/2020.2.1.27.

Latiff, Osman: *The Cutting Edge of the Poet's Sword. Muslim Poetic Responses to the Crusades*, Leiden: Brill, 2018.

Little, Donald P.: Al-Ṣafadī as Biographer of his Contemporaries, in: Donald P. Little (ed.), *Essays on Islamic Civilization Presented to Niyazi Berkes*, Leiden: Brill, 1976, pp. 190–210.

Murray, Alan V.: The Place of Egypt in the Military Strategy of the Crusades, 1099–1221, in: Jan Vandeburie (ed.), *The Fifth Crusade in Context. The Crusading Movement in the Early Thirteenth Century*, London: Routledge, 2017, pp. 117–134.

Parker, Kenneth Scott: The Indigenous Christians of the Ayyubid Sultanate at the Time of the Fifth Crusade, in: Jan Vandeburie (ed.), *The Fifth Crusade in Context. The Crusading Movement in the Early Thirteenth Century*, London: Routledge 2017, pp. 135–145.

Powell, James M.: *Anatomy of a Crusade: 1213–1221*, Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1994.

al-Qāḍī, Wadād: Biographical Dictionaries: Inner Structure and Cultural Significance, in: George N. Atiyeh (ed.), *The Book in the Islamic World: The Written Word and Communication in the Middle East,* Albany: State University of New York Press, 1995, pp. 93–122.

Robbert, Louise Buenger: Venetian Participation in the Crusade of Damietta, in: *Studi veneziani* 30 (1995), pp. 15–34.

Rosenthal, Franz: al-Ṣafadī, in: *Encyclopaedia of Islam, Second Edition* 8 (1995), pp. 759–760.

Runciman, Steven: The Crusader States, 1243–1291, in: Kenneth Setton, Robert Lee Wolff und Harry W. Hazard (ed.), *A History of the Crusades*, vol. 2: *The Later Crusades, 1189–1311*, Philadelphia: Pennsylvania University Press, 1962, pp. 557–598.

Saunders, John Joseph: The Significance of Egypt, in: John Joseph Saunders (ed.), *Aspects of the Crusades*, Christchurch: University of Canterbury, 1962, pp. 28–38.

Strayer, Joseph R.: The Crusades of Louis IX, in: Kenneth Setton, Robert Lee Wolff and Harry W. Hazard (ed.), *A History of the Crusades*, vol. 2: *The Later Crusades, 1189–1311*, Philadelphia: Pennsylvania University Press, 1962, pp. 487–518.

Stürner, Wolfgang: Der Kreuzzug Kaiser Friedrichs II., in: Karl-Heinz Rueß (ed.), *Stauferzeit – Zeit der Kreuzzüge*, Göppingen: Gesellschaft für staufische Geschichte, 2011, pp. 144–157.

Van Cleve, Thomas C.: The Fifth Crusade, in: Kenneth Setton, Robert Lee Wolff and Harry W. Hazard (ed.), *A History of the Crusades*, vol. 2: *The Later Crusades, 1189–1311*, Philadelphia: Pennsylvania University Press, 1962, pp. 377–426.

Vandeburie, Jan: The Historiography of the Fifth Crusade, in: Jan Vandeburie (ed.), *The Fifth Crusade in Context. The Crusading Movement in the Early Thirteenth Century*, London: Routledge, 2017, pp. 5–11.